القلم واللسان*..

علي بن محمد بن خلف الهمذاني

... ولما خلق الله سبحانه القلم واللسان والبنان والبيان، آلات له في شكر بلائه - تعالى ، ونشر ما يتواتر إلينا من نعمائه ويتوالى، لزم كل ذي دين، وأدب رصين، أن يجعل تأكيد العناية بتهذيب العبارة جاريا مجرى العبادة، لما يقع بها من الإفاضة في التحميد، والإبانة عن التوحيد، ولأنها من الأسباب التي يتوصل معها إلى شرف المناجاة، ويتوسل في الدعاء بها إلى درك الحاجات.

فإذا اختير لها من النظام أصحه، ومن الكلام أفصحه، كان ذلك أولى بأولي الأديان والألباب، وأدنى إلى استجزال الأجر والثواب، ولذلك قد بذلت غاية الإمكان فيما يؤدي إلى حسن البيان الذي خص الله به - سبحانه - اللسان العربي، وجعل من جنسه المعجز النبوي.

ووجدت العرب التي لها فصل الخطاب، ومنها أصل الآداب، قد جردت ألفاظها المصفاة المخزونة، في كلماتها المقفاة الموزونة، ومالت إلى المنظوم أكثر من ميلها إلى المنثور، لأنه أمد صوتا، وأشد صونا، وألذ لحنا، وأخف وزنا، وأشد بالحفظ علاقة، وأقرب إلى القلب مسافة.

ودعاهم إلى فضل التأنق فيه، والتصنع له، تصورهم أن مآثرهم تخلد به، ومفاخرهم تدخر فيه، فحرسوها بالتقفية كما حرست الفرس أحسابها بالأبنية، وخلف أولئك أشعارا تروى، وهؤلاء آثارا ترى، فللعربي بيت وديوان، وللفارسي قصر وإيوان، وكلاهما قد جد في تأثيل[1] مجده، بحسب إرادته وقصده، فرفعت الفرس من مساعيها بتشييد مبانيها، وعنيت العرب بقوافيها في تهذيب ألفاظها ومعانيها، عناية دعت الرواد إلى انتجاعها، والكتاب إلى اجتذابها، لكنهم أغفلوا إلى هذه الغاية الخوض في تلك الغمار، والغوص منها على اللآلي الكبار.

واقتصروا من الشعر على روايته، وقاموا فيه مقام الصدى وحكايته، ولم يتصورا أنه إذا قطف زهره، وسبك جوهره، ثم غير تأليفه، وجدد ترصيفه، وعرض في معرض الخطابة، وعدل به إلى مذهب الكتابة، تولد منه فرع يزيدعلى الأصل، ونوع ينيف[2] على الجنس، كما يزيد الريع[3] على البذر، ويعلو الغيث على البحر.

وقنعوا لترسلهم [4] بالألفاظ الحاضرية. والمعاني الخاطرية، وتواضع بعضهم بالكلام السوقي ليقال مطبوع، وتفاصح بعضهم بالغريب الحوشي[5] ليقال مصنوع، فجاء أكثرهم بين متماد في لين القول حتى لحق بالطبقة العامية، ومتعاط في غرابة اللفظ حتى دخل في الكتابة المعلّمية، وفاتهم أن يجمعوا بين حلاوة الحضارة وطلاوة[6] البداوة، وأن يمزجوا ظرف [7] العراق بشكل الحجاز، ولم يعلموا أن المتفرغ عنهما أشرف من المنفرد منهما، على أن كليهما حسن، وقد فرق الله - تعالى - بينهما في المرتبة وإن جمع بينهما في المنفعة ■

الهوامش:

* من كتاب: المنثور البهائي، لعلي بن محمد بن خلف الهمذاني، المتوفى سنة ٤١٤هـ، تحقيق د. عبدالرحمن بن عثمان بن عبدالعزيز الهليل، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، الرياض، ص٤٠٩ .

(١) التأثيل: التأصيل والبناء . يقال: مجد مؤثل وأثيل .

(٢) ينيف: يزيد.

(٣) الريع: الزيادة، والنماء، والخصب، في حمل الشجر ونحوه.

(٤) الترسل: كتابة الرسائل.

(٥) الحوشي: بالغ الغرابة

(٦) الطلاوة: البهاء والحسن.

(٧) الظرف: البراعة والذكاء، وحسن العبارة.